من أسرار التعبير القرآنيّ في سورة الأعلى

م. م هاني كنهر عبد زيد العتّابيّ م. م حسن سوادي طعمة
المديرية العامة لتربية واسط كلية الإمام الكاظم الجامعة/ أقسام واسط

Of the secrets of expression in Surah AL-ala""

Asst. Lec. Hassan sawady Tuama Asst. Lec Hani kenher Abed Zead
Imam Al_kadhum college (IKC) Directorate General of Education Wasit
hassansawady190@gmail.com hani.kenher@gmail.com

الملخّص

يسعى هذا البحث إلى الوقوف على أسرار التعبير القرآنيّ وخصائصه في سورة الأعلى، انطلاقاً من الإيمان بأنّ (التعبير القرآنيّ تعبير فنّي مقصود)، وينطلق لتحقيق غايته عبر تسع مسارات، الأوّل منها يبحث في المراد من التسبيح في هذه السورة، والثاني يعرض التفضيل الذي يمثل ظاهرة جليّة فيها، والثالث يعرض فيه تعاور المفردات، والرابع يسلط الضوء على توظيف أبنيّة الأفعال ومقاصدها ساعياً إلى إظهار العلائق الرابطة بين المعنى القرآنيّ والبناء اللغويّ، والخامس يناقش مسألة تقديم الالفاظ وتأخيرها، والسادس يستقرئ دلالة حذف الألفاظ وذكرها، والسابع عرض جانبًا من الحشد الفنيّ في هذه السورة، والثامن يوضّح أثر تكرار الاسم الموصول، والتاسع عرض عرضًا موجزًا للفاصلة القرآنيّة، وهو في كلِّ ذلك يسعى إلى أن يقدّم تعليلاً يستمدّ قوته من السياق العام لهذه السورة.

الكلمات المفتاحية: (التعبير القرآني، سورة الأعلى، الاعجاز)

Abstract

The present research aims to identify the secrets and characteristics of Quranic expression in surat Al-ala which is based on the belief that the Quranic expression is an intentional artistic expression. This can be achieved through nine ways:the first ،what is meant by (Altasbeeh).The second presents the preference which is an outstanding phenomenon in surat Al-ala. The third It offers vocabulary exchange. The fourth sheds some light on the use of the verb structures and their purposes ،seeking to show the links between the Quranic meaning and the linguistic expression.The fifth discussion fronting and distocating of vocabularies. The sixth predicts the meaning of the deletion of vocabularies. The seventh Show some artistic crowd in this Surah.The eighth: illustrates the repetition of the relative pronoun and finally, The research shows a brief summary of Quranic comma and It is in all this seeks to provide and explanation that takes it's strength from the general contex for this surah.

Keywords: (Quranic expression, Surah AL-ala, Miracles)

المُقدِّمَة

الحمدُ لله ربِّ العالمين والصّلاةُ والسّلامُ على أفصحِ من نطقَ بالضّادِ محمّدٍ وعلى آله الطّيّبين الطّاهرين، وبعد:

فقد وقرَ في أذهان اللّغويّين القدامى والمحدثين أنَّ التّعبير القرآنيّ يغايرُ مألوفَ القول ومتداولَ الكلام، وقد وضُعَ فيه اللفظُ في المحلِّ الّذي يقتضي أنْ يوضعَ فيه، باختيارِهِ دونَ سواه، وتقديمِه أو تأخيرِه، وحذفِه أو ذكرِه. وأفضى بهم ذلك إلى أنْ يستفهموا عن سببِ اختيارِ هذا اللفظ أو ذاكَ، وسببِ تقديمِه أو تأخيرِه، وذكرِه أو حذفِه، وسببِ الإيجازِ أو الإطنابِ؛ لغرضِ الوقوفِ على أسرار التّعبير القرآنيّ وخصائصه.

ويُعدُّ الدكتور فاضل صالح السامرائيّ من أبرزِ الباحثينَ المعاصرين الّذينَ انصبّتْ عنايتُهم بالقرآنِ الكريم، وإجراءِ الموازناتِ بينَ آياتِه، من حيث التشابِه والاختلافِ في التّعبير، وقد أنتجَ في ذلك مؤلفاتٍ، تُعنى بالوقوفِ على أسرارِ التّعبير القرآنيّ، وذلك بملاحظةِ المقام وسياق القول، وقد اعتمد في ذلك على جهود القدامى، نحو ما ذكرَه الخطيب الاسكافيّ (ت 420هـ) بقوله: "**إذا أوردَ الحكيم تقدّست أسماؤه آيةً على لفظة مخصوصة، ثمّ أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غيّر لفظة عمّا كانت عليه في الأولى، فلا بُدّ من**

حكمة هناك تُطلب، وإنْ أدركتموها فقد ظفرتم، وإنْ لم تدركوها فليس لأنّه لا حكمةَ هناك، بل جهلتم"[461]، وهذا النصّ يوعز للمهتمين بدراسة القرآن الكريم بضرورة ارتشاف النكات القرآنيّة التي من أجلها تعاورت المفردات في كثير من النصوص القرآنيّة، فجاءت جهود السامرائيّ وغيره من الباحثين تطبيقًا لما قاله الاسكافيّ.

وجاءَ هذا البحث هادفاً إلى الوقوفِ على أسرارِ التعبير القرآنيّ في سورة الأعلى وسماتِها التعبيريّة، ذلك لأنَّها لم تحظَ بدراسةٍ في ضوء التعبير القرآنيّ، فلم تنل مباحث التعبير القرآني فيها دراسة وافية عند القدماء ولاسيما من عُني بإبراز النكات القرآنيّة في الآيات المتشابهة؛ إذ يرد لها ذكر –على سبيل التمثيل– عند الخطيب الاسكافيّ، ولم تنل عناية المحدثين لاسيما الدكتور السامرائيّ، فتناولَ البحث ومضاتٍ من خصائص التعبير القرآنيّ فيها، ورتّبها على حسب تسلسلها في هذه السورة، والبحثُ يبدأُ ممّا انتهى إليه الباحثونَ؛ فتجنّبَ التعريفَ بمصطلحِ التعبير القرآنيّ اكتفاءً بجهودِهم في ذلك. وقد اتّخذَ تفاسيرَ القرآن الكريم وكتبَ اللّغة وبعضَ مؤلفاتِ السامرائيّ وسيلةً للاستدلال على ما سعى إلى تبيينه، معتمداً في ذلك أسلوباً قائماً على تقديمِ الحججِ المعتمدةِ على ملاحظةِ المقامِ وسياقِ القولِ، ومحاولاً انتحاءَ طريقة السامرائيّ. ونحن لا يدّعى أنَّنا قد أحاطَنا بخصائص التعبير القرآنيَ في هذه السورة المباركة، بل نذكر أنَّ ما بيّناه لا يمكنُ الجزمُ به، فحسبنا ما سعينا إليه، وكلُّ إنسانٍ يُؤخذُ من كلامِه ويُرد.

أوّلاً: التّسبيح في سورةِ الأعلى:

التّسبيح في اللّغة: التنزيه، تَقولُ: سَبَّحتُ الله تسبيحاً، إذا نَزّهتُه تَنزِيها[462]، وقد وردَ التّسبيح في القرآنِ الكريمِ بأغلبِ الصيغِ (سبّحَ– يسبّحُ– يسبحونَ–سبحانَ– سبّحْ)، لكنّه لم يردْ في مفتتحِ السورِ القرآنيّة بصيغةِ الأمرِ إلّا في سورةِ الأعلى، قال تعالى: "**{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}**"[463]، وجاءَ في مفتحِ ستِّ سورٍ قرآنيّة على صيغةِ الماضي والمضارعِ والمصدرِ، واختصّتْ سورةُ الأعلى بصيغةِ الأمر، ويظهرُ أنَّ القرآنَ الكريمَ خصَّ التّسبيح في هذه السورة باسم الله (الأعلى) دونَ غيرِه من الأسماء الحسنى، للدلالة على الاطمئنان التامّ والتسليم المطلق؛ لأنَّ المرادَ بالعلو " كمالُ القدرة "[464]، فهو أعلى من أن يُقاس به.

وقد ورد فعل التّسبيح في القرآن الكريم لازمًا في سبعة وعشرين موضعًا، ومتعديًا ذُكر مفعولُه في تسعة مواضع، ومتعديًا لم يُذكر مفعولُه في ثلاثةِ مواضعٍ[465]، ومن المُلاحَظ في هذه السورة تعديةُ فعل الأمر (سبّح) إلى المفعول به– وهو الأصل– بخلافِ سورتي الواقعة والحاقّة؛ إذ جاءَ فعلُ الأمر في السورتين متعديًا بحرفِ الجرّ الباء، قال تعالى: "**{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}**"[466]، وقد ذُكرتْ في ذلكَ أقوال كثيرةٌ متباينةٌ، أشهرها أنَّ التّسبيح إذا كانَ بمعنى الصلاة دخلتْ الباء تنبيهًا على ذلك المعنى، وإذا كانَ بالمعنى المجرّد من الصلاة فلا يتعدّى بحرفِ الجرّ[467].

وجاءَ في مفاتيحِ الغيبِ أنَّ قوله: (فسبّحْ ربَّك) لم يفدْ الذّكر، بل هو أمر بالتّسبيح بالقلب، وأنَّ قوله: (فسبّحْ باسم ربّك) دلَّ على أنّه مأمورٌ بالذّكر اللسانيّ، وليسَ له أنْ يقتصرَ على الذّكر القلبيّ، فلا تكون الباء زائدة[468].

---

(461) درّة التّنزيل وغرّة التّأويل : 20–21

(462) ينظر: مقاييس اللغة (سبح): 125/3

(463) الأعلى: 1

(464) مفاتيح الغيب: 126/31

(465) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 248/9–250

(466) الواقعة: 74، 96، والحاقة: 52

(467) ينظر: نتائج الفكر في النّحو للسُّهَيلي: 36، و بدائع الفوائد: 20/1، و أضواء البيان: 538/7.

(468) ينظر: مفاتيح الغيب: 424/29–425

ويظهر من مراجعة السياق القرآنيّ في سورتي الواقعة والحاقّة، وما فيها من ذكر للقرآن الكريم "**{تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}**"[469]، وما ذُكر في سورة الواقعة من الصفات الدالّة على القدرة والعظمة الإلهية، وما ذكر في سورة الحاقة من وصف مشاهد يوم القيامة، وتصوير الجنّة والجّحيم، وما كان في ذلك من الجدل والحوار والتقاويل، أنَّ التّسبيح فيها يكونُ بالقلب واللّسان، وعدمِ الاقتصار على التّسبيح القلبيّ، فجاءَ الفعلُ في السّورتين متعدياً بالباء، أمّا في سورة الأعلى فجاءَ الفعلُ متعدياً للمفعول به في مفتتح السورة و" هو الأصل لأنَّ التّسبيح يتعدّى بنفسه لأنَّ معناه تبعيدٌ من السّوء"[470]؛ وذلك للدلالة على التّسبيح القلبيّ لا اللسانيّ، وهو أنْ تعيشَ حالة من الشعور بالاطمئنان بعلوّ الله وسموّه وهدايته وتقديره، وتنزيهه عن كلِّ ما لا يليق به، في ذاته وأسمائه وصفاته؛ فلمّا كان العظيم – كما سيأتي– مختصّاً بالقدرة أو القوّة المُدركة بالحاسّة، كان التّسبيح شاملاً للقلب واللّسان، ولمّا كان الأعلى دالًّا على مُطلق القدرة الإلهية المُدركة وغير المُدركة، كان التّسبيح دالًّا على معناه المُطلق وهو التنزيه. أمّا الذّكر والصلاة ففي مرحلة تالية للتّسبيح معطوفة بالفاء، وذلك من التناسب بين مُفتتح السورة وآياتها. والله أعلمُ.

ثانيًا: التفضيل في سورة الأعلى:

إنَّ القارئ لسورة الأعلى يلمح من الإطار العام لها أنّها قائمة على رسم أفضل الصفات، وما يعاكسها من الصفات، لذا فهي تتكئ للوصول لهذا التعبير على صيغة التفضيل وهذا الاسلوب –التفضيل– في الاصطلاح يُعرّف بأنّه "الصفة الدالة على المشاركة والزيادة"[471]، وأنّه "الوصف المبني على أفعل لزيادة صاحبه على غيره في أصل الفعل"[472]، وأنَّه: "اسم مشتق من المصدر على وزن **أفعل** للمذكر و**فعلى** للمؤنث، يدل – في الأغلب– على أن شيئين اشتركا في صفة، وزاد أحدهما على الآخر في تلك الصفة وقد لا يدل على ذلك، كما يدل –في أغلب صوره– على الاستمرار والدوام"[473].

وتكررت صيغة التفضيل في سورة الأعلى تسع مرات، والعاشرة لفظ أخذ معنى التفضيل (تؤثرون) بمعنى تفضلون[474]، وهذا التأكيد في تكرار الصفة يشكّل ملمحاً مهمّاً يحتاج إلى عناية وتدقيق نظر، والصفات هي (الأعلى، أحوى، يُسرى، الأشقى، الكبرى، الدنيا، خير، أبقى، الأولى)، وسياق التفضيل في لفظة (الأعلى) من قوله تعالى: "**{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}**"[475] جاء ليُبين صفات الله عز وجل فتطلب التعبير بصفة العلو والقدرة[476]، ولم يستعمل في هذا المقام صفة أخرى كالعظيم والعزيز والحكيم، والسبب في ذلك؛ هو لأنّ الأعلى تكون عامة تستوعب كلّ الصفات، فالأعلى بمعنى العلو الذي هو القهر والاقتدار، لا بمعنى العلوّ في المكان والاستواء على العرش حقيقة[477].

ونلمح تناسب ووجه من وجوه الاعجاز القرآنيّ في هذا المقام، وهو أن لفظة الأعلى تكررت في القرآن تسع مرات[478]، وصيغة التفضيل تكررت في هذه السورة تسع مرات، ويبدو والله أعلم، أن اسم السورة جاء متماشياً مع هذا التكرار، وكان مدعاةً لتسمية السورة بالأعلى.

([469]) الواقعة:80، والحاقة:43

(470) مفاتيح الغيب: 153/28

(471) شرح قطر الندى وبل الصدى: 375.

(472) شرح التصريح على التوضيح: 100/2.

(473) ظاهرة التّفضيل بين القرآن الكريم واللغة: 230.

(474) ينظر: الأعلى: 16

(475) الأعلى:1.

(476) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: 181/10.

([477]) ينظر: تفسير الكشاف: 737/4.

([478]) ينظر: النحل: 60، وطه: 68، والروم: 27، الصافات:8، ص:69، والنجم:7، النازعات:27، والأعلى:1، والليل:20.

ومن صيغ التفضيل التي خصّها الله تعالى بسورة الأعلى ولم تذكر إلّا مرة واحدة في القرآن (أحوى) إذ قال تعالى: "**{فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى}**"[479]، وأحوى في اللغة تعني السواد "حتى سموا كلّ أسود أحوى"[480]، وقال المفسرون فيها إنَّها "تجمّع النبات اليابس وتراكمه حتّى يتحول لونه تدريجيّاً إلى السواد"[481]، وسياق الآية يُبين حياة النبات من الخلق حتى النهاية، فهو في كلّ مرحلة صالح لأمر من أمور الحياة، ورب سائل يسأل ما علاقة حياة النبات بالسياق العام لهذه السورة، فالجواب يكون أن الله تعالى أراد لفت الأنظار إلى أمر مهمّ وهو كلّ نبت إلى حصاد وكلّ حي إلى نهاية، وهذا ما يتفق مع سياق ذكر الموت والحياة في هذه السورة، إذ يقابل الحياة الدنيا كالغثاء الأحوى[482]، وهذا الأسلوب من خصائص التعبير القرآنيّ التي دائما ما يستعملها القرآن.

ومن أدنى الصفات التي ذكرها الله تعالى في القرآن يذم فيها المعاندين (الأشقى)، إذ قال تعالى: "**{يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى}**"[483]، وهي اسم تفضيل من الفعل (شقى)، استعملها القرآن في موضعين[484]، للدلالة على فئة من الناس تجاوزت حدود العناد والبعد عن الحق، فما كان من القرآن إلّا أن يصفهم بهذه الصيغة، ولم يستعمل معهم صيغة أخرى كـ(شقي) صفة مشبهة مع أنّها مستعملة في القران[485]؛ لأن صيغة التفضيل أكثر ملائمة مع وضعهم، ولأن النبي وعظهم ولكن كانوا يتجنبونه، وتبعا لذلك فالقرآن حدّد عذاب هذه الفئة (النار الكبرى)، والكبرى كذلك اسم تفضيل أراد به ابراز منزلة هؤلاء المعاندين في الدرك الأسفل من جهنم، أو على رأي أخر في جهنم[486].

وثمةَ نكتةٌ لطيفةٌ في هذه السورة تتمثّل باستعمال الفعل (أخرج) الذي يختصُّ بصفة من صفات الدنيا المتغيرة الزائلة، واسمي التفضيل المتتابعين (خير وأبقى) الذينِ يصفان الآخرة بثبات الخير ودوامه، فما يختصّ بالدنيا ونبتها عبّر عنه القرآن الكريم بالفعل– الذي يدلّ على التغيّر– المتعلّق بالمرعى– ولم يتعلّق بغيره من النباتات الدائمة– وما يختصّ بالآخرة عبّر عنه باسمين متلازمين من أسماء التفضيل للدلالة على الثبات والدوام.

والملاحظ على أسماء التفضيل أعلاه أنها وردت مقترنة بـ (ال)، وهذه الزيادة لها فائدة "فالتفضيل بـ(أل) هو أعلى وأعم درجات المفاضلة"[487] وبذلك فالله تعالى أراد إعطاء أعلى وأعم الدرجات في التفضيل، وأما الأسماء التي جيء بها مجردة من (ال) التعريف، فإنها وردت من غير ذكر المفضل عليه؛ لعدم وجود وجه مفاضلة، ولأنه أراد بها الزيادة في أصل الوصف[488].

ثالثًا: تعاور المفردات:

قد تتعاور المفردات في التّعبير القرآنيّ، فتستعمل مفردة في موضعٍ، وتستعمل غيرها في موضعٍ آخر مع أنّ الموضوع واحد[489]، وذلك لمناسبة السياق، ومن ذلك اختصاص التّسبيح في هذه السورة باسمِ الله الأعلى، واختصاصه في سورتي الواقعة والحاقة باسم اللهِ العظيم: "**{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}**"[490]، فخالف بين الاسمين مع أنَّ الموضوع واحد وهو التّسبيح، وكلّ ذلك بحسب ما

(479) الأعلى: 5.

(480) جمهرة اللغة: 1/ 231.

(481) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل:80/20، وينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن10/ 182، والميزان في تفسير القرآن:20/ 299.

(482) ينظر: في ظلال القرآن: 3888/6

(483) الأعلى:11.

(484) ينظر: الأعلى: 11، والليل: 15.

(485) ينظر: هود: 105، ومريم: 4، 32، 48.

(486) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل:85/20، 86، والميزان في تفسير القرآن:20/ 303، ومجمع البيان في تفسير القرآن10/ 183.

(487) معاني النحو: 320/4

(488) ينظر: معاني النحو:4/ 313.

(489) ينظر: بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ: 109

(490) الواقعة:74، و 96، و الحاقة:52

يقتضيه السياق، أو يستدعيه المقام، وذلك أنَّ العظيم يدلّ على القرب، والأعلى يدلُّ على البعد، فلمّا عرض الصفات الدالّة على القدرة المُدرَكة بالحسّ، ذكر اسم العظيم؛ لأنّه إذا عُلم منه شيءٌ يُقال عنه: عظيم، وإذا ذُكر بالمعنى المطلق، يُقال: الأعلى؛ أي هو أعلى ممّا يحيط به إدراكنا[491]، ولا مفاضلة في ذلك.

والقرآن الكريم فصّل وذكرَ في سورة الواقعة ما لم يذكرْه في سورة الأعلى، فالتّسبيح في سورة الواقعةِ جاء تالياً لمجموعةٍ من الاستفهامات الّتي تدلُّ على "عموم صلاحية القدرة الإلهيّة "[492]، ومناسباً لبيانِ (خلقِ النسل، وإنباتِ الزرع، وإنزالِ الماء من المزن، وإنشاءِ شجرة النارِ)، فكلُّ تلك الاستفهامات يكون الجواب عنها، باسمٍ يتضمّن معاني القدرة والقوّة، فناسبَ ذلكَ اسم العظيم.

أمّا في سورة الأعلى فالسياق يُخبر بمطلقِ لطفِ اللهِ وعنايتِه بالإنسانِ وخلقِه وهدايتِه له، ثمَّ العِدَة بالإقراء، والإخبار بمشيئة اللهِ وعلمه بالجهر وما يخفى، وهذه الصفات تناسبُ اسم الله الأعلى الدالّ على التفرّد بالكمال المطلق والبعد عن جميع صفات النقص النسبية والمطلقة، والصفات السلبية المحضة، والله أعلم.

رابعًا: أبنية الأفعال:

1. فعّل وأفعل:

يغلب على صيغة (فعّل) أن تأتي للمبالغة والكثرة[493]، وقد تأتي لمعانٍ أخرى كالتعديّة، والنسبة إلى أصل الفعل، وللسلب والإزالة، وغيرها[494]، وتكررت هذه الصيغة في سورة الأعلى خمس مرات، وهي (سبّح، سوّى، قدّر، يسّر(نيسّرك)، ذكّر)، وقد أعطت معنى الكثرة والمبالغة في الفعل، ومن ذلك قوله تعالى: "**{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}**"[495]، إذ يلاحظ من متابعة السياق أنّ القرآن استعمل الفعل (يسّبح) بهذه الصيغة؛ لأجل التكثير والمبالغة في الحدث واستغراق وقت أطول في التسبيح[496]، ولأنّ التسبيح تنزيه، والتنزيه علو، فناسب أن تأتي بعدها لفظة (الأعلى) [497]، ولسائل أن يسأل لماذا استعمل صيغة (فعّل) ولم يستعمل غيرها من الصيغ؟ فالجواب يبدو من مراقبة السياق القرآنيّ بشكل عام، ذلك أنّ القرآن الكريم يستعمل (فعّل) للأمور المعنويّة ولأمور الدين[498]، وهذا ما يتفق مع سياق الحال للآية الكريمة، إذ أن التسبيح من الأمور المعنوية التي تقوي علاقة العبد بربه، لذا فالاستعمال القرآنيّ مقصود لتقريب المعنى وتوضيحه، والله أعلم.

ومنه قوله تعالى: "**{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى}**" ونيسرك مضارع (يسّر) والتيسير بهذه الصيغة (فعّل)؛ لغرض التبليغ بالقول والفعل، فيهدي قوماً، ويلقي الحجة على قومٍ آخرين[499]، وهذا ما ينسجم مع المعنى اللّغويّ لهذه الصيغة[500]، ويتفق مع الاستعمال القرآني لصيغة (فعّل) في الأمور المعنوية والدينيّة.

ونخلص من ذلك أن للقران الكريم خطاً عاماً يسير عليه في صيغة (فعّل)، إذ يغلب استعمالها مع الأمور المعنوية والدينيّة، وقد أفادت معنى الكثرة والمبالغة وتأكيد الفعل، فضلا عن سياق السورة الخاص كما ظهر، والله أعلم.

وتأتي صيغة (أفعل) لمعانٍ ودلالات متنوعة من أشهرها التعديّة، والتعريض، والصيرورة، وقد تأتي بمعنى (فعّل) فيما يراد فيه الكثرة، وغيرها من المعاني[501]، تكررت هذه الصيغة في سورة الأعلى أربع مرات وهي (أخرج، أقرأ (نقرئك)، أفلح، أثر (تؤثرون))، إذ قال

(491) ينظر: مفاتيح الغيب: 424/29
(492) التحرير والتنوير: 320/27
(493) ينظر: الكتاب: 4/ 63، 64، وبلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ: 58، والتعبير القرآني: 35.
(494) ينظر: شرح شافية ابن الحاجب: 92/1.
(495) الأعلى:1.
(496) ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ: 58
(497) ينظر: اسرار التكرار في القرآن: 218.
(498) ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ: 59.
(499) ينظر: الميزان في تفسير القرآن:301/20.
(500) ينظر: شرح شافية ابن الحاجب: 92/1.
(501) ينظر: الكتاب: 4/57-59، 65، وأبنية الفعل في شافية ابن الحاجب: 201-207.

تعالى: **{وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى}**[502]، فاستعمال القرآن صيغة (أفعل) هنا للدلالة على التعديّة، إذ استعمل (أخرج) بهذه الصيغة للإسراع في الوصول إلى معنى أعم هو (التغذية)؛ ذلك أن أخرج افادة عمليّة تكوين النباتات واخراجها من الأرض، ثم أن هذه النباتات تغذي الحيوانات التي بدورها مقدمة لتغذية الإنسان[503]، إذ تطلب المقام في هذه الآية الإسراع في شرح هذه العملية؛ لأنه ليس في مقام تفصيل عملية التغذية، بل في سياق تعداد فضائل الرب وقدرته العليا، لذا استعمل صيغة (أفعل) للوصول إلى المعنى المراد الوصول إليه بسرعة، ومن جانب أخر فهذا الاستعمال ينسجم مع الرأي القائل أن صيغة (أفعل) غالباً ما تكون مع الأمور المادية[504]، والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: "**{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}**"[505]، إذ جاءت (تُؤثِرُون) مضارعاً لـ(أثر) بمعنى تفضّلون[506]، والملاحظ على السياق أن الخطاب لعامة الناس على ما يدعو إليه طبعهم البشري من التعلق بالدنيا وعمارتها[507]، واستعمل صيغة (أفعل) بمعنى (فعّل) للدلالة على الكثرة والمبالغة في تعمير الدنيا وتفضيلها، ولسائل أن يسأل لماذا استعمل القرآن الكريم هنا (أفعل) بمعنى (فعّل)، ولم يستعمل (فعلّ) التي تنطلق صراحة لمعنى الكثرة والمبالغة؟

فجواب هذا السؤال يكون في ملاحظة السياق القرآنيّ عامّة، ذلك أنَّ الاستعمال القرآنيّ لصيغة (أفعل) دائما يرد مع الأمور المادية، وتفضيل الدنيا وتعميرها من الأمور المادية، لذا استعمل معها (أفعل) بمعنى (فعّل) دلالة على الكثرة، ولم يستعمل صيغة (فعّل) صراحة؛ لأن الاستعمال الدقيق لهذه الصيغة دائما ما يرد مع الأمور المعنوية والدينيّة، وهذا المعنى لا ينسجم مع سياق الآية، ولذا فإنَّ القرآن الكريم كان دقيقاً في وضع كلّ صيغة في مكانها الأنسب، وبما يتلاءم مع سياقها، فوضع صيغة (أفعل) مع أمور الدنيا، ووضع صيغة (فعّل) مع الأمور المعنويّة والدينيّة، والله أعلم.

2. يتَفَعّل ويفّعّل

من خصائصِ التعبيرِ القرآنيّ في سورة الأعلى استعمال الفعلين (يذَّكَّرُ) و(يَتَجَنَّبُ) متتاليين، وذلك في قوله تعالى: "**{سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى}**"[508]، وأسندَ الأوّل إلى (من يخشى)، وأسندَ الثاني إلى (الأشقى)، والأوّل أبدلتْ فيه التاء ذالاً، وأدغمتْ في الذال، وقد وردَ في القرآن الكريم بالإبدال وبغيره في مواضع متنوعة، ومن ورودِه بغيرِ الإبدال قوله تعالى في سورة النازعات: "**{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى}**"[509]، والفعل الثاني(يتجنّب) لم يحدثُ فيه الابدال وبقيتْ التاء على حالها، ولم يرد في القرآن الكريم بإبدال التاء أبداً، وقد ورد بغيرِ الإبدال، في موضع واحد من القرآن الكريم، واختصّت به سورة الأعلى.

والقرآن الكريم دقيقٌ غاية في الدقّة في استعمال الألفاظ؛ إذ لم تردْ فيه لفظتان للدلالة على معنًى واحدٍ تماماً، وإنْ كانتا مختلفتين في جانب الإبدال فقط، كما في (يذّكّر) و(يتذكّر)، وذلك أنَ بناء (يذّكّر) أقصر من بناء (يتذكّر) في النطق؛ إذ إنَّ بناء الثاني أطول من الأوّل بمقطع واحد، كما أنَّ (يذّكّر) فيه تضعيف زائد على (يتذكّر)، ففي الأوّل تضعيفان وفي الثاني تضعيف واحد. وأنَّ ما كانَ على وزن (يتَفَعّل) قد يُؤتى به في اللّغة للدلالة على التدرّج في حدوث الفعل؛ أي الحدوث شيئاً فشيئاً نحو: تمشّى، وقد يُؤتى به للدلالة على التكلّف وبذل الجهد نحو: تصبّر، وفي كلا المعنيين دلالة على الطول في الوقت والتمهّل في الحديث. وما كانَ على وزن (يفّعّل) يُؤتى به للدلالة على المبالغة في الحديث؛ لأنَّ تكرارَ الحرف إشارةٌ إلى تكرارِ الحدث [510].

---

(502) الأعلى:4.
(503) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: 80/1
(504) ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني:59
(505) الأعلى: 16.
(506) ينظر: لسان العرب: 7/4
(507) ينظر: الميزان في تفسير القرآن:303/20.
(508) الأعلى: 10، 11.
(509) النازعات: 35
(510) ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: 36-37

فالقرآنُ الكريم يستعمل كلّ منهما بسياق خاصّ به، ويظهر ذلك جلياً في استعمال الفعل (يتذكّر) في سورة الانفطار، والفعل (يذّكر) في سورة الأعلى، ففي آيات سورة الانفطار تفصيل لمشاهد يوم القيامة وما فيها من دحو الأرض وإرساء الجبال وإخراج الماء منها، وغير ذلك من المشاهد المتنوعة والمتسلسلة، فناسب ذلك مجيء الفعل على صيغة (يتفعّل) التي تفيد التدرّج في حدوث الفعل، وما فيه من دلالة على الطول في الوقت، ويعني التطاول في التذكّر والتدّرج فيه، أما السياق في سورة الأعلى فتكفّل بالأمر بالتسبيح القلبي لاسم الله، وبيان قدرته وعلوّه وسموّه فناسب ذلك مجيء الفعل (يذّكر) على صيغة (يفّعّل) للدلالة على المبالغة في التذكير والتكثير فيه. والله أعلم.

3. المضارع المزيد (نُقْرِئكَ)

ممّا اختصّت به هذه السورة عن غيرها من سور القرآن الكريم استعمال الفعل المزيد (نُقْرِئ) في قوله تعالى: "**{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى}**"[511]، إذ لم يرد في القرآن الكريم بصيغة المضارع المزيد إلّا في سورة الأعلى، وقد ورد في سورة الإسراء بصيغة المضارع المجرّد، في قوله تعالى: "**{وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ...}**"[512]. وفعل الإقراء من الأفعال المتعدية إلى مفعولين، غير أنَّه ورد في السورة متعديّاً إلى مفعولٍ واحد وهو الضمير الكاف، أمّا المفعول الثاني فمحذوف، وقيل: "تقديره الكتاب"[513].

ومن الملاحظ أنَّ القرآن الكريم أمر بالقراءة في كثير من السور القرآنية، واختصت هذه السورة بالوعد والإخبار بالإقراء لا القراءة؛ وليس لديّ من تفسير لذلك، غير أنَّ ما ورد فيها ممّا لا يستطيع الانسان القيام به لوحده لتعلّقه بالوحي والوحي من الله، إذ ذكر صاحب الميزان أنَّ قوله تعالى: "**{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى}**"[514]، في مقام التعليل لقوله: "**{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى}**"، و"المعنى سنُصلح لكَ بالكَ في تلقّي الوحي وحفظه لأنَّا نعلمُ ظاهرَ الأشياء وباطنها"[515].

ومن عجائب التعبير القرآنيّ استعمالُ المصدر والفعل في قوله تعالى: "**{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى}**"، (الجهر) و(ما يخفى)، فانظرْ كيفَ فرّق بينهما في الاستعمال، ولم يقلْ: الجهر والخفاء أو الجهر والخفية، أو ما يجهر وما يخفى، فاتّضح أنَّ الحال ثابتة بيّنة للإنسان في الجهر لسهولة إدراكه والعلم به، فناسب ذلك استعمال المصدر، أمّا الخفاء ففيه من الاستمرار والتجدّد والحدوث شيئاً بعدَ شيءٍ، ولا يتصّفُ بالثبوت؛ لأنَّه ممّا لا يدرك بالحاسة فناسب ذلك استعمال الفعل؛ فالاسم يفيد الثبات والاستقرار، والفعل يفيد التجدد والاستمرار والحدوث[516]. والله أعلم.

خامسًا: التقديم والتأخير:

ونعني بالتقديمِ التقديمَ غير الاصطلاحي، أي أن تتقدم لفظة في موضع، وتتأخر في موضعٍ آخر لسبب يقتضيه السياق، أو يستدعيه المقام، وقد ورد هذا الأسلوب بكثرة في القرآن الكريم، ومنه سورة الأعلى، فقدّم في قوله: "**{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى}**"[517]، خلق على سوى، وتكرر هذا الأسلوب في موضع أخر إذ قال تعالى: "**{ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى}**"[518]، وقدم الخلق؛ لأنه خلق "كُلَّ شَيْءٍ، فَسَوَّى: أَيْ لَمْ يَأْتِ مُتَفَاوِتًا بَلْ مُتَنَاسِبًا عَلَى إِحْكَامٍ وَإِتْقَانٍ"[519]، وكان التقديم على أساس القدم والاولوية فمرحلة الخلق تتقدّم على التنظيم والتناسب، بدليل التقديم في الآية الثانية التي رتب الموجودات فيها حسب القدم والوجود مرحلة العلق، بعدها الخلق في الارحام ومن ثم

(511) الأعلى: 6
(512) الإسراء: 93
(513) دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 186/4
(514) الأعلى: 7
(515) الميزان في تفسير القرآن: 301
(516) ينظر: معاني الأبنية في العربية: 9-10
(517) الأعلى: 2.
(518) القيامة:38.
(519) البحر المحيط: 10/ 454.

سواه إنساناً[520]، ونحو ذلك التقديم في قوله: "**{وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}**"[521] إذ اقتضى السياق تقديم التقدير على الهداية، لأجل القدم والأولوية؛ لأن القدرة تسبق الهداية.

واستعمل القرآن الكريم كلمة (غثاءً) في موضعين، الأول في سورة المؤمنون في بيان ما صار إليه الظالمون بعد أنْ أخذتهم الصّيحة، وذلك في قوله تعالى: "**{فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}**"[522]، والثاني في سورة الأعلى، وجيْءَ بها صفة للمرعى في قوله تعالى: "**{فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى}**"[523]، ويظهر أنّه قدّم لفظة (غثاء) على (أحوى) في سورة الأعلى؛ وذلك أنَّ العشب وما ترعاه النّعم من النباتِ، قد يصيرُ هشيماً ثمَّ يسودّ بعد ذلك من القدمِ، و"هذا الوصفُ "أحوى" لاستحضَارِ تَغَيُّرِ لونهِ بَعدَ أَنْ كانَ أَخضرَ يَانعاً"[524]، فالتقديم يكون للترتيب الزمنيّ، وهو السبق والأولويّة باعتبار الإيجاد؛ لأنَّه يكون هشيماً ثمَّ يسوَدُّ بعد اخضراره.

ومن اللطيف أنّ لفظة (الجهر) تكررت في القرآن (11) مرة، وغالباً ما تأتي مقدمة على القول، وجاءت في سورة الأعلى مقترنة بالخفاء ومتقدمة عليه إذ قال تعالى: "**{إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى}**"[525]، والمقام استدعى تقديم الجهر؛ لأن العلم بالجهر يكون اسبق من العلم بالخفاء، ولفظة (الجهر) وردت في القرآن خمس مرات[526] مقترن بالقول ومتقدمة عليه ومنه قوله تعالى: "**{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ}**"[527].

واختصت سورة الأعلى بتقديم الجهر على الخفاء، ومن متابعة السياق القرآني للسورتين يظهر أن القرآن استعمل الجهر مقترن بالقول في المواضع التي تخصّ الإنسان، وهي في أغلبها جاءت في سياق الذم، أما في سورة الأعلى فإنَّ السياق يخبر بعلم الله الذي لا تحدّه حدود الجهر والخفاء، فهو (يعلم الجهر وما يخفى)، ويعزز ذلك اختلاف المفسرين في معنى الإقراء الوارد في سورة الأعلى، فمنهم من ذهب إلى أنه تلقي الوحي[528]، ومنهم من يرى أنه تعليم الرسول القرآن حتى يحفظه[529]، ونخلص من ذلك إلى أن اقتران الجهر بالقول ناسب حال الإنسان في موضع الذم، وأما اقترانه بالخفاء فصح أن يكون وصفاً شاملاً عاماً لعلم الله.

ومن ذلك أيضاً تقديم الفعل (لَا يَمُوتُ) على الفعل (لَا يَحْيَى) في قوله تعالى: "**{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}**"[530]، وقد تكرر ذلك في سورة طه أيضاً، في قوله تعالى: "**{إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى}**"[531]، وقدّم الإخبار عن نفي الموت في الآيتين؛ للتأكيد على الاحساس بالعذاب والشعور به، حتّى لا يظنُّ ظانٌّ أنّه لا يحسُّ بالعذاب، فناسبَ ذلك تقديم الفعل (لا يموت). وفي هذه الآية نكتة لطيفة في وصف الحال التي سيصير إليها الأشقى في النار، فهو لا يموت ليستريح، ولا يحيى حياة تستحقُّ هذه التسمية، واستعمل في سورة الأعلى حرف العطف (ثمَّ) للدّلالة على التراخي في مراتب العذاب؛ لأنّ هذه الحال "أَفظَعُ وأَعظَمُ مِنَ الصَّلَى فهو مُتَراخٍ عنه في مراتب الشدّة"[532]، ولم يدخل الحرف (ثمّ) في سورة طه، لأنَّ المقام في ذكر جهنم، ولم يذكر مراتب العذاب فيها وأحواله.

(520) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن112/10.
(521) الأعلى: 3.
(522) المؤمنون:41
(523) الأعلى: 5
(524) التحرير والتنوير: 278/30
(525) الأعلى: 7.
(526) ينظر: النساء: 148، والأعراف: 205، وطه: 7، والانبياء: 110، والحجرات: 2.
(527) الأنبياء: 10.
(528) ينظر: معاني القرآن واعرابه:5/ 316، والميزان في تفسير القرآن:20/ 300.
(529) ينظر: مفاتيح الغيب: 31/ 131، تفسير القرطبي: 18/20.
(530) الأعلى: 13
(531) طه:74
(532) الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 254/6

ومن ذلك تقديم الزكاة على الصلاة في قوله تعالى: "**{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى۞ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}**"[533]، وعند متابعة اللفظة في القرآن الكريم نجد أن لفظة الزكاة اقترنت بالصلاة [28] مرة، وفي كلّ الآيات تقدمت الصلاة على الزكاة ومن ذلك قوله تعالى: "**{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ}**"[534]، فالله تعالى يأمر بإقامة الصلوات؛ لأنّها توثق علاقة العبد بربه[535]، وأنّه عندما قدّم الصلاة في كلّ الآيات أراد الصلوات اليوميّة (الفريضة)، ولذا فسياق الكلام تطلب التدرج من الكثرة إلى القلة، لأن الصلوات اليومية أكثر من الزكاة فقدم الصلاة، وأما سورة الأعلى فقد اختصّت من بين سور القرآن الكريم بتقديم الزكاة على الصلاة، لماذا؟ الجواب على ذلك يكون بأنّ الله تعالى لا يريد بالصلاة في سورة الأعلى (الصلوات اليومية)، وإنّما أراد صلاة العيد والتشريع أمر بدفع زكاة الفطرة قبل أداء الصلاة[536]، وتبعا لذلك فالتقديم هنا مقصود لأجل الترتيب، فرتبة زكاة الفطرة قبل صلاة العيد من حيث الزمن، والله أعلم.

ومن ذلك أيضاً تقديم اسم التفضيل (خير) على (أبقى) في قوله تعالى: "**{وَالآخرة خَيْرٌ وَأَبْقَى}**"[537]، وقد تكرر اقتران اسمي التفضيل(خير) و(أبقى) في القرآن الكريم في خمسة مواضع، فجيء بهما وصفاً لله في موضعٍ، ووصفاً لرزقه في موضعٍ آخر، وجيء بهما وصفاً لما عندَ الله في موضعين، واختصّتْ سورة الأعلى بمجيء الاسمين المقترنين وصفاً للآخرة، وقدّم الخير على البقاء لأنَّ صفة الخير تسبق صفة البقاء والدوام، فإنّه يكون خيراً ثمّ يدوم. والله أعلم.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: "**{صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى }**"[538]، فقدّم صحف ابراهيم على صحف موسى، وقال في سورة النجم: "**{أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى۞ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}**"[539]، فقدّم صحف موسى على صحف ابراهيم؛ وذلك أنَّ السياق في سورة النجم في ذكر أهل الكتاب وهم اليهود[540]؛ فقدّم صحفهم وهي صحف موسى على صحف غيرهم، وليس الأمر كذلك في سورة الأعلى، وإنّما وردَ فيها ذكر الصحف للإخبار بها، فرتبّها حسب القدم والأوليّة، فقد جاءَ في الاتقان أنَّه قدّم صحف ابراهيم على صحف موسى للسّبق "باعتبارِ الإنزَالِ"[541]، فوضعَ كلّ لفظة في الموضع الذي تقتضيه.

سادسًا: الحذف والذكر:

تعددت مظاهر الحذف في سورة الأعلى، كحذف المفعول به، وحذف الموصوف، وحذف المفضّل عليه، وحذف العائد، وكلُّ ذلك جاء لغرضٍ بلاغي مقصود؛ لأنَّ "التعبير القرآنيّ تعبير فنيّ مقصود، كلّ لفظة بل كلّ حرفٍ فيه وضع وضعاً فنيّاً مقصوداً"[542]، ومن أبرز مظاهر الحذف في هذه السورة حذف المفعول به، ومن ذلك قوله تعالى: "**{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}**"[543]؛ فقد حُذفَ المفعول به من كلِّ فعلٍ من الأفعال المذكورة مع كونِها من الأفعال المتعدية، وقد ورد كلٌّ منها في القرآن الكريم في غيرِ هذه السورة مستوفياً مفعوله، ومن ذلك قوله تعالى: "**{الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}**"[544]، وقوله: "**{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا }**"[545]، وقوله: "**{وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ}**"[546] أمّا في سورة الأعلى، فلم يُذكر المخلوق والمسوّى، ولا المقدّر والمهدِيّ.

---

(533) الأعلى: 14، 15.
(534) البقرة: 43.
(535) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: 186/1.
(536) ينظر: الميزان في تفسير القرآن:297/20، 303.
(537) الأعلى: 17
(538) الأعلى: 19
(539) النجم: 36، 37
(540) ينظر: مفاتيح الغيب: 275/29
(541) الإتقان في علوم القرآن: 44/3
(542) التعبير القرآني: 8 ، وبلاغة الكلمة في التعبير القرآني: 9.
(543) الأعلى: 2، 3.
(544) الانفطار: 7
(545) الفرقان: 2
(546) البقرة: 198

وقد سعى المفسرون إلى تقدير تلك المفاعيل، وبيان علّة حذفها، وكلُّ ما ذكروه يدورُ في مجيءِ الحذف لأداء أكثر من غرض دلاليّ، منها ما هو جمالي فنّي، ومنها ما يقصدُ به العموم؛ أي عموم الخلق والتسوية والتقدير والهداية، فحذفُ المفاعيل–عندهم– جاءَ ليؤدي أغراضَ العموم والانسجام والفاصلة[547].

ورُبّ سائلٍ يسألُ عن سبب حذف المفاعيل في سورة الأعلى وذكرها في غيرها من السور، والجواب– والله أعلم– أنَّ المقام في سورة الانفطار في الكلام عن اغترار الانسان بربّه، والإعراض عن طاعته، فناسب ذلك ذكر المفعول به، لبيان منّة الله عليه في خلقه وتسويته. أمّا في سورة الأعلى فالفرق واضحٌ، وترى ذلك متى ما تأملتَ سياق السورة، ومناسبة الصفة المذكورة (الأعلى) وما تحمله من معاني السموّ والقدرة والتعظيم؛ إذ إنّ هذه الصفة تتبعها صفات الخلق والتسوية والتقدير والهداية لتكون مفسّرة لها، فناسبَ ذلك حذفُ المفعول به؛ لأنَّ القرآن الكريم أراد إظهار الفعل، لا المفعول به؛ إذ أراد أن يثبتَ هذه الصفات للموصوف، ليُعلم وقوعها من غير أن يتعرّض لبيانِ المفعول به.

وقد جاء في دلائلِ الإعجاز في بيان الغرض من حذف المفعول: "وهكذا كلُّ موضعٍ كان القصدُ فيه أن تثبتَ المعنى في نفسه فعلًا للشيء، وأن تخبر بأنَّ مِن شأنِه أنْ يكونَ منه، أو لا يكونُ إلاَّ منه، أو لا يكونَ منه، فإنَّ الفعلَ لا يُعدَّى هناك، لأَنَّ تعديته تَنْقُضُ الغرضَ وتُغيّر المعنى"[548]، ويوضّحُ الجرجانيّ(ت471هـ) ذلك بقوله: " ألا ترى أنّكَ إذا قلتَ: "هو يُعطي الدنانيرَ"، كان المعنى على أنّك قصدْتَ أن تُعْلمَ السامعَ أنَّ الدنانيرَ تَدْخلُ في عطائِه،... لا الإعطاءُ في نفسِه، ولم يكن كلامُك معَ مَنْ نَفَى أن يكونَ كان منه إعطاءٌ بوجهٍ من الوجوه"[549]. وعلى وفق ما تقدّم يكون حذف المفاعيل في سورة الأعلى لانتفاءِ الحاجة إلى ذكرها، بخلاف ما في سورة الانفطار، وإنّما جيءَ بالأفعال في سورة الأعلى لقصد إثبات صفات الخلق والتسوية والتقدير والهداية، لا لقصد بيان جنس المفعول به، أمّا ذكر المفعول به مع الفعل (أخرج) فكان–كما سيُذكر– لبيان جنس ما تناوله الإخراج وهو المرعى، لا الإخراج نفسه، وقد يكون لحذف المفعول به سبب أخر، وهو أنَّ هذه الأفعال شديدة الإيحاء بالمفعول به، فحُذف المفعول معها، ولم يُحذفْ مع غيرها. والله أعلم.

سابعًا: الحشد الفنّيّ:

ونعني به الحديث عن أكثر من موضع في السياق الواحد، ممّا يدلّ دلالة واضحة على أنَّ القرآن الكريم وضعَ كلّ كلمةٍ بل كلّ حرفٍ وضعًا فنيًّا مقصودًا[550]، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الأعلى: "**{وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى۞الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى}**"[551]، وقوله في سورة الليل: "**{فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى۞ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى۞الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۞ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى}**"[552].

فأنت ترى ما بين الآيتين من تشابه، وإنّما تختلف أحدهما عن الأخرى في تأخير الفعلَ (يصلى) في سورة الأعلى؛ إذ جاء تاليًا لاسم التفضيل(الأشقى)، بالعكس من سورة الليل، فقد جاءَ الفعل فيها مقدّمًا على اسم التفضيل، وتختلف أيضًا في تقديم الفعل (يتجنّب) في سورة الأعلى، وتأخير الفعل(يُجنّب) في سورة الليل، ووصف النار في سورة الأعلى بـ(الكبرى)، ووصفها بالفعل(تلظّى) في سورة الليل، فضلًا عن اختلاف أبنية الأفعال.

ويظهر أنَّ سياق آياتِ سورةِ الأعلى في الأمر " بالتذكير، أي التبليغ، أي بالاستمرار عليه، إرهافًا لعزمه، وشحذًا لنشاطه"[553]، فالمقام مقام تذكير وتبليغ وتخويف، ثمَّ تلاه إخبارٌ بالحال الذي سيصير إليها الأشقى جزاءً لتجنّبه الذّكرى، فجاء الفعل (يصلى) لبيان تلكَ الحال.

(547) ينظر: الكشف والبيان: 183/10، ومجمع البيان:329/10، والتحرير والتنوير: 275/30.
(548) دلائل الإعجاز: 155
(549) دلائل الإعجاز: 155
(550) ينظر: التّعبير القرآني: 252
(551) الأعلى: 11، 12.
(552) الليل: 14، 15، 16، 17.
(553) التحرير والتنوير: 282/30-283

أمّا سورة الليل فسياقُ آياتها فيه تفصيلٌ في اختلاف أحوال الناس على اختلاف سعي كلٍّ منهم، وإنذارهم من النّار، فالآيةُ توازنُ "بين حالتي عظيمٍ من المشركين وعظيمٍ من المؤمنين، فأُريدَ أنْ يبالغَ في صفتيهما المتناقضتين فقيل: الأشقى، وجعل مختصًّا بالصّلى، كأنَّ النار لم تخلقْ إلّا له. وقيل: الأتقى، وجعل مختصًا بالنجاة، كأنَّ الجنة لم تخلق إلّا له"[554]؛ إذ ذكرت الآياتُ السابقة حالةَ الوعدِ والوعيد والإنذار؛ فجاء الجزاء بالفعل (يصلى) تابعاً للوعيد به، والإنذار منه، وخلاصة القول إنَّ تأخير الفعل في سورة الأعلى ناسبَ ذكر تجنُّب الذّكرى، كما ناسبَ تقديم الفعل في سورة الليل مقامَ الوعيد والإنذار. ولمّا كان السياق عامًّا في الإنذار والتخويف، جاء وصف النار بأنّها ملتهبة (تلظّى)، وحين كان السياق في ذكر جزاء الأشقى، جاء وصف النار بـ(الكبرى)، فراعى في تعبير هذه السورة وبنائها تعبير جميع السور الأخرى وبناءَها، وذلك يدلّ على أن القرآن الكريم كلّه حشدٌ فنيّ عظيم.

ثامنًا: التّكرار في سورة الأعلى:

من عجائب التعبير القرآنيّ في هذه السورةِ تكرار صيغة التفضيل؛ إذ تكرّرت فيها تسعَ مرّاتٍ (الأَعْلى–أَحْوَى– الْيُسْرَى– الْأَشْقَى– الْكُبْرَى– الدُّنْيَا– خَيْرٌ– أَبْقَى– الْأُولَى)، وجيء بثمانية أسماء منها مختومة بالألف، وذلك لمناسبة اسم السورة(الأعلى) التي جاءت على صيغة التفضيل من الفعل الناقص.

ومن ذلك تكرار الاسم الموصول (الذي) في ثلاثةِ مواضع متتالية، وترتيبُ الأفعال بعدَه ترتيباً عجيباً، وذلك في قوله تعالى: "**{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۞ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى}**"[555]. وإذا أردتَ أن تتبيّنَ ذلك، وتقف على سببِ تكرار الاسم الموصول، وترتيبِ الأفعال بهذه الصورة العجيبة، إذ تلازم فعل الخلق مع فعل التسوية، وفعل التقدير مع فعل الهداية، وجاءَ بعدها فعل الإخراج مع ذكر المفعول به، فهذا يحتاجُ إلى متابعة السياق في هذه السورة.

ويظهر–والله أعلم– أنَّ الغرض من تكرار الاسم الموصول في هذه السورة هو السبقُ والأوليّة باعتبار الإيجاد؛ أيّ أنَّ المجموعة الأولى: (خلقَ فسوّى) تتلوها المجموعة الثانية: (قدّر فهدَى) ثمَّ الثالثة: (أخرج المرعى)، فجاءَ الاسم الموصول (الذي) للتنبيه على تلك المراحل، وبيان ترتيبها.

وقد كانَ هذا التدرّج–والله أعلم– بحسب القدم والأولويّة، فبدأ بالأقدم ثمَّ الذي يليه، وعلى وفق ذلك كانَ المعنى: خلقَ الأشياء فسوّى صنعها، ثمَّ قدَّرَ الخلق على ما خلقهم فيه من الصور والهيئات، فهداهم إلى دينه بمعرفة توحيده بإظهار الدلالات والبينات، ثمَّ أنبتَ من الأرض لمنافع جميع الحيوانات[556]، ولهذا التدرّج سبب آخر اقتضاه المقام، وهو العناية بصلة الموصول فتكون كلُّ جملةٍ مستقلةٍ مقصودةً بالذكر، وقد جاءَ في بدائع الفوائد: "فلمّا غايرَ بين الجمل بذكر الاسم الموصول مع كلِّ جملةٍ دلَّ على أنَّ المقصودَ وصفُه بكلِّ من هذه الجمل على حدتها"[557].

تاسعًا: الفاصلة القرآنيّة في سورة الأعلى:

ونعني بالفاصلة نهاية الآية القرآنية التي يتم فيها المعنى، وهي "حروف متشاكلة في المقاطع تُوجب حُسن إفهام المعنى"[558]، ولما للألفاظ من أثر في توصيل المعاني كانت "فواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة؛ لأنّها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدلّ بها عليها"[559]، فالفاصلة تكمّل معنى الآية، ويتم بها النغم الموسيقي، ولذا فإنّها تأتي مستقرة مطمئنة في موقعها، ولها أثر في توصيل معنى الآية، ومن دونها يختل المعنى ويضطرب الفهم، فهي تؤدي جزءً من معنى الآية ينقص ويختل بنقصانها[560].

(554) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: 763/4
(555) الأعلى: 2، 3، 4.
(556) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: 329/10، وتفسير القرآن الكريم واعرابه وبيانه: 547/10
(557) بدائع الفوائد: 190/1
(558) النكت في اعجاز القرآن: 89.
(559) المصدر نفسه: 90
(560) ينظر: البناء الصوتي في البيان القرآني: 69، 70.

وإنّ تكرار الفاصلة في الآيات القرآنية، له مدلول صوتي موسيقيّ، فلم يكن متماثلاً، بل يأتي بشجن جديد يتناسب مع دلالة الآية التي قبلها، وهو يتغيّر مع دلالة الآية التي بعدها[561].

وقد اتسمت الفاصلة القرآنيّة في سورة الأعلى بسمتين مهمتين هما الدلالة والوقع الموسيقي، إذ جاءت في سورة الأعلى منسجمة مع سياقها العام الدال على الاطمئنان والتسليم المطلق، وهذا ما يناسب فاصلة الألف التي تكررت في فواصل السورة جميعها، إذ حصل المد فيها بالألف وانساب فيها الصوت انسياباً دون تكلف، لما في هذا الصوت من انفتاح ولين، وصفة اللين هذه تصوّر لنا أخراج الصوت بلا احتباس أو تضييق[562]، ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى: "**{وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى *فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى}**"[563] إذ ذكر بعض المفسرين أن (أحوى) يمكن أن تكون صفة للمرعى، للدلالة على شدّة خضرته، كما يمكن أن تكون صفة لـ(غثاء) للدلالة على السواد[564]، فيظهر أن تأخير (أحوى) في نهاية الآية حقق الدلالتين السابقتين فضلاً عن الوقع الموسيقي الذي طغى على فواصل السورة الأعلى جميعها.

الخاتمة

1. يقدّم البحث قراءة جديدة للتسبيح الوارد في سورة الأعلى، إلى جانب القراءات التي قدّمها المفسرون، إذ ذهبوا إلى أن المراد بالتسبيح الصلاة أو التسبيح اللسانيّ، والبحث يؤيد القول بأنّ المراد بالتسبيح في هذه السورة التسبيح القلبيّ الذي يمثّل الاطمئنان والتسليم.
2. استعمل القرآن الكريم أسلوب التفضيل في سورة الأعلى؛ ليُبيّن أعلى الصفات وأعمَّ الدرجات، وكذلك أدنى المقامات، ولعل من أسرار التعبير القرآنيّ أن صيغة التفضيل تكررت في هذه السورة تسع مرات، وهذا التكرار لاسم التفضيل لم يرد في أي سورة من السور القصار، وأن لفظة (الأعلى) تكررت في القرآن تسع مرات أيضاً، وذلك يشير والله أعلم إلى تسميّة السورة بالأعلى.
3. تكرر أسلوب التقديم والتأخير في سورة الأعلى غير مرة، وقد خرج إلى أغراض متعددة منها الترتيب حسب القدم والاولوية، والتدرج من الكثرة إلى القلة، ولمناسبة سياق السورة، وهذا ما كان بارزاً من مراقبة سياق الحال.
4. رصد البحث مواضع الحذف في سورة الأعلى، من خلال مقارنة آياتها مع آيات أخرى في القرآن الكريم، وهو في كلِّ ذلك يسعى إلى أن يقدّم تعليلاً يستمدّ قوته من السياق العام لهذه السورة.
5. وقف البحث في سورة الأعلى على مصداق لآراء الباحثين لدلالة الجملة الفعليّة على التجدد والاستمرارية مع الاحداث المتجددة العامة، وعلى دلالة الجملة الاسميّة على الثبات والاستقرار، للتعبير عن القضايا الثابتة، وهذا ما يتلاءم ودلالتها.
6. سعى إلى البحث عن الفروق الدقيقة لاستعمال صيغ الأفعال، وخلص إلى أن استعمال (فعّل) –في الغالب– يكون في مقام البقاء وطول المدة، ومع الأمور المعنوية والدينيّة، واستعمل (أفعل) –في الغالب– في مقام الإسراع والوصول، وفي الأمور الماديّة، كما وقف على صيغة (تفعّل) ومواطن استعمالها بالإبدال وبغير الإبدال، كما أشار إلى تفرّد سورة الأعلى ببعض الصيغ محاولاً الوقوف على مقاصد ذلك.
7. حققت الفاصلة القرآنيّة في القرآن الكريم لاسيما في سورة الأعلى أثرين الأول دلاليّ، والآخر موسيقى، وذلك ما يظهر جليّاً في خواتيم آيات سورة الأعلى.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

(561) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن: 287.
(562) ينظر: في الأصوات اللغويّة: 78.
(563) الأعلى: 4،5.
(564) ينظر: مفاتيح الغيب: 130/31

1- ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر(ت1287هـ)، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، دار التونسية للنشر، 1984م.

2- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمّد بن أبي بكر (ت 751هـ)، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).

3- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الأفريقي (المتوفى: 711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.

4- الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت321هـ)، جمهرة اللغة، تحـ: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 2، 1987م.

5- الأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن النحوي (ت 686هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، تحـ: محمد محيي الدين عبد الحميد وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، 1982م.

6- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين (ت745هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحـ: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ.

7- الأنصاريّ، جمال الدين عبد الله بن هشام (ت761هـ)، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحـ: بركات يوسف هبّود، دار الفكر، بيروت، 1998م.

8- الثعلبيّ، أحمد بن محمد بن إبراهيم(ت427هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحـ: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط1، 1422هـ-2002م.

9- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ)، الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ.

10- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت474هـ)، دلائل الاعجاز، تحـ: أبو الفهر محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004م.

11- الخطيب الإسكافيّ، أبو عبد الله محمّد الأصبهانيّ(ت420هـ)، درّة التنزيل وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، دار آفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1981م.

12- الرازيّ، أبو عبد الله محمّد بن عمر بن الحسن (ت 606هـ)، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.

13- الرضي، الشريف(ت406)، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحـ: محمد عبد الغنيّ حسن، دار احياء الكتب العلميّة، القاهرة، (د. ت).

14- الرمانيّ، لأبي الحسن علي بن عيسى(ت386هـ)، النكت في اعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، تحـ: محمد خلف الله، ومحمد زغلول، دار المعارف، مصر، (د.ت).

15- الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل(ت311هـ)، معاني القرآن وإعرابه، تحـ: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1988 م.

16- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1407 هـ.

17- السامرائيّ، فاضل صالح، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007م.

18- السامرائيّ، فاضل صالح، التعبير القرآني، مكتبة رشيد الهجري، بغداد -العراق، ط1، 2013م.

19- السامرائيّ، فاضل صالح، الجملة العربيّة تأليفها وأقسامها، منشورات المجمع العلميّ العراقيّ، 1998م.
20- السامرائي، فاضل صالح، معاني الأبنية في العربية،، ط1، الكويت، 1401 هـ - 1981م، ساعدت جامعة بغداد على نشره.
21- السامرائي، فاضل، معاني النحو، وزارة التعليم والبحث العلمي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، 1408هـ-1987م.
22- السهيليّ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت581هـ)، نتائج الفكر في النَّحو للسُّهَيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412هـ - 1992 م.
23- السّيوطيّ، أبو بكر جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحـ: محمد إبراهيم، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974 م.
24- الشاذلي، سيد قطب إبراهيم حسين (ت1385هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط17، 1412 هـ.
25- الشنقيطيّ، محمد الأمين بن محمد المختار(ت1393هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، 1415 هـ - 1995 م.
26- الشيرازيّ، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار الاميرة، بيروت، ط2، 2009م.
27- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة دار المجتبى للمطبوعات، قم، إيران، ط1، 2009م.
28- الطبرسيّ، أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تصحيح وتحقيق: هاشم الرسولي المحللاتي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط1، 2008م.
29- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين(ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحـ: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964 م.
30- الكِرماني، محمود بن حمزة بن نصر، أسرار التكرار في القرآن، دراسة وتحـ: عبد القادر أحمد عطا، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1404 هـ- 1983م.
31- المطلبيّ، غالب فاضل، في الأصوات اللغويّة دراسة في أصوات المد العربية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دائرة الشؤون الثقافيّة والنشر، العراق، 1984م.
32- بن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا (ت 395 هـ)، مقاييس اللغة، تحـ: عبد السلام هارون، دار الفكر، ط1، 1979م 0
33- زين الدين المصري، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري (ت905هـ)، شرح التصريح على التوضيح، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2000م.
34- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (180هـ)، الكتاب، تحـ: عبد السلام هارون، دار الخانجي، القاهرة، الطبعة 3، 1982م.
35- شرشر، محمد حسن، البناء الصوتيّ في البيان القرآنيّ، دار الطباعة المحمديّة، القاهرة، ط1، 1988م.
36- طه، محمد علي، تفسير القرآن الكريم واعرابه وبيانه الدّرة، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط1، 1430هـ-2009م
37- عضيمة، محمد عبد الخالق، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، 2004م.
38- نور الدين، عصام، أبنية الفعل في شافية ابن الحاجب، دار الفكر اللبناني، ط1، 1997م.
39- عبد المجيد، أبو سعيد محمد، ظاهرة التّفضيل بين القرآن الكريم واللغة، مجلة البلقاء، العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 9، ع1، 2002م.